17

لم يكن دبلوماسياً فحسب ...
مرور ١٥٨ عاماً على ميلاد أليكسي ألكسندروفيتش سميرنوف

الدبلوماسي الروسي الشهير أليكسي ألكسندروفيتش سميرنوف

بحلول عام ٢٠١٦ يكون قد مر ١٥٩ عاماً على ميلاد الدبلوماسي الروسي البارز أليكسي ألكسندروفيتش سميرنوف السياسي والأديب وأحد أبرز الشخصيات المثقفة في عصره ، ولكن للأسف الشديد ظل اسمه طي النسيان لمدة ٧٥ عاماً .

«Arrive hier, ai pris direction agence diplomatique» (وصل بالأمس ، وتولى إدارة البعثة الدبلوماسية)[٥٣٦] هكذا صدر أول خبر عن أ.أ سميرنوف من القاهرة في الرابع والعشرين من أبريل ١٩٠٥ . ومنذ ذلك التاريخ أقام المبعوث الدبلوماسي الروسي والقنصل العام عشرين عاماً في وادي النيل .

تعرفتُ على اسم أ.أ. سميرنوف لأول مرة منذ حوالي ثلث قرن مضى ، من خلال الوثائق الخاصة بأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية . وقد ألقت المواد الأرشيفية التي تم العثور عليها هناك والخاصة بهجرة الروس البيض ، الضوء على هذه الشخصية الدرامية من الروس المقيمين في الخارج ، والثقافة الروسية بوجه عام وعلمتُ من نسخة وصية أ.أ. سميرنوف أن القنصل الروسي توفي و دفن بالقاهرة في مقابر الأرثوذكس بالقاهرة في فبراير ١٩٢٤ م .

---

٥٣٦ عن مقالة : Он был не только дипломатом. К 157-летию со дня рождения А. А. Смирнова ، والتي نشرت بمجلة « الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady.
أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥١ ، «الأرشيف السياسي»، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة ٨٥٤ ، عام ١٩٠٥ ، السطر رقم ١٣ .

فلاديمير بيلياكوف بجوار قبر سميرنوف بمقابر الكنيسة اليونانية بمصر القديمة ، التقطت بواسطة جينادى جورياتشكين

حاولت أكثر من مرة ، عندما كنتُ أتواجد بالقاهرة في المؤتمرات العلمية ، والندوات السياسية والاجتماعية ، ورحلات العمل أن أجد مقبرة الدبلوماسي ، وإستطعتُ في النهاية العثور على تلك المقبرة في الرابع من يناير ١٩٩٩ ، أي بعد مرور ٧٥ عاماً على وفاته توجد مقبرة أ.أ. سميرنوف بالقرب من مقابر اليونانيين المصريين الأثرياء ، بجوار مقبرة الكنيسة ، التابعة لدير القديس جيورجى . وهناك توجد أيضا مقابر الروس الذين تم دفنهم في الفترة الممتدة من العشرينيات إلى الستينيات من القرن العشرين في الموجة الأولى من الهجرة الروسية ، والكنيسة التي أقيمت على «المقبرة الروسية ».

في أحد الممرات التي تفصل بين تلك المقابر اقتربت من شاهد مقبرة صغير ، ووجدت في المنتصف صليباً حجريا ملقى على الأرض. وتوقعت أن أرى كما على أغلب المقابر الأخرى اسما يونانيا ، ولكن فجأه عثرت على مقطع « نوف» شعرت ببعض القلق، وأزلت بيدى التراب ليظهر تاريخ معروف لى وهو عام «١٨٥٧». خفق قلبي بقوة ، وقمتُ بإزالة طبقة أخرى من التراب من الجانب الآخر للصليب ، لأكتشف وجود اسم «أليكسي» وأسفله كلمتي «ولد» و «مات» . ناديت على زملائى المتواجدين هناك بصوت متهدج من الإثارة، وقمنا برفع الصليب من على الأرض، ورأينا المكتوب عليه « أليكسي سميرنوف ... ولد في ١٤ سبتمبر ١٨٥٧ .... توفي في ٥ فبراير ١٩٢٤» .

ولد أ.أ. سميرنوف في ألطاي . في عام ١٨٦٩ انتقلت أسرته للعيش في سانت بطرسبورج. وبعد أن أنهى دراسته في قسم اللغات « العربية ، الفارسية ، التركية ، التتارية» بالكلية الشرقية بجامعة العاصمة ، تم تعيينه موظفاً في وزارة الخارجية في الثامن والعشرين من أكتوبر ١٨٨١. وذلك بعد أن أنهى دراسته في قسم اللغات « العربية ، الفارسية ، التركية ، التتارية» بالكلية الشرقية بجامعة العاصمة . وتزامن تعيين سميرنوف في وزارة الخارجية مع تفاقم الوضع السياسي في الدول العربية بأفريقيا ، حيث قامت فرنسا باحتلال تونس وحولتها إلى مستعمرة ، واندلاع ثورة عرابي باشا المناهضة للتدخل الأجنبى في مصر، والتي إنتهت بالاحتلال الإنجليزي للبلاد . ويمكن التأكيد هنا على أن الدبلوماسي الشاب سميرنوف كان على دراية كاملة بمشاكل الولاية العثمانية الكبرى ، نظراً لأنه كان مشمولا في ذلك الوقت باهتمام شديد من الدوائر الاجتماعية والدبلوماسية في روسيا.

في فبراير عام ١٨٨٥ تم تعيين سميرنوف مساعد سكرتير سفارة الإمبراطورية الروسية في القسطنطينية ، وخدم هناك حتى وصل إلى وظيفة سكرتير ثان في عام ١٨٩١ . ظل الدبلوماسي سميرنوف يعمل في عاصمة الإمبراطورية العثمانية قرابة عشر سنوات . وفي مارس عام ١٨٩٧ انتقل للعمل كسكرتير أول للبعثة الدبلوماسية الروسية باليونان، التي كانت في حالة حرب مع تركيا في ذلك الوقت . وتكريما له على خدمته لسنوات عديدة ، والخدمات الخاصة للعرش القيصرى صدر مرسوم من القيصر في السادس من ديسمبر ١٩٠٢ بمنح أ.أ. سميرنوف لقباً فخرياً وهو ياور البلاط الإمبراطوري . وفي عام ١٩٠٣ حصل على لقب المستشار الفعلي للدولة .

بعد أن سطع نجم سيمرنوف كعالم وخبير بالقضايا العربية والإسلامية ، وكممثل لروسيا ذو تعليم راق وسياسي واسع المعرفة ، تم اختياره في عام ١٩٠٨ عميداً للسلك الدبلوماسي بالقاهرة ، وظل على تلك الصفة حتى عام ١٩٢٣ .

أدركت حكومة الإمبراطورية الروسية أهمية مصر البالغة كدولة إقليمية هامة بالمنطقة ، فعملت على تحسين مكانة البعثة الدبلوماسية الروسية بتعيين أ.أ. سميرنوف مبعوثاً غير عادي ، ووزيراً مفوضاً في الخامس من أغسطس ١٩١١ .

نعود الآن، إلى بداية إنخراط أ.أ. سمير نوف في العمل الدبلوماسي بالقاهرة. عقب وصول ياور البلاط الإمبراطوري إلى مقر عملة، سرعان ما انخرط في الحياة السياسية العاصفة بمصر. وكان قد ترأس البعثة الدبلوماسية للامبراطورية الروسية بعد هزيمتها في الحرب الروسية اليابانية. قامت حكومة روسيا القيصرية وبشكل عاجل، بنقل الأسطول البحرى الى منطقة الشرق الأدنى، بالإضافة الى تبديل جزء من وحدات القوات البرية المتمركزة هناك بوحدات جديدة عن طريق قناة السويس، إلا أنه وفقاً لمعاهدة القسطنطينية المبرمة في عام ١٨٨٨، كان مرور البوارج العسكرية للأطراف المتحاربة عبر مياه قناة السويس أمرا صعبا. في ظل تلك الأجواء تطلبت المشاكل الصعبة الناشئة من القنصل العام الروسي بذل أقصى درجات النشاط والتكتيك. فقد تسبب الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على حكم مصر، في خلق العديد من المشكلات، فلم يبارحهم الأمل في السيطرة على ذلك الشريان المائي [٥٣٧]. كانت حكومة الإمبراطورية الروسية تدرك ذلك، فأخذت تقاوم المخططات الإنجليزية بقوة، واعتبرت هذه المسألة واحدة من أهم أولويات مهام المبعوث الدبلوماسي الروسي في وادي النيل.

وهناك معلومات تفيد بأنه بفضل مساعدة أ.أ. سمير نوف استطاعت سبعون سفينة ركاب روسية، تحمل ١٢٣ ألف من حاملي الرتب الدنيا أن تعبر مياه قناة السويس إلى مياه البحر الأسود في النصف الأول من عام ١٩٠٦. وقد ذكر المقدم ف.أ أرتامانوف بهيئة الأركان العامة تلك المساعدة المهمة، والصعبة، والدقيقة جداً في التقرير المرسل للمبعوث في الثاني والعشرين من يونيو عام ١٩٠٦. وقد جاء في التقرير «بعد أن أنهيت مهمتى في مصر، أرى أنه من واجبي الأخلاقي أن أعلم سيادتكم عن المساعدة الهائلة التي تم تقديمها بشأن الإجلاء من جانب قنصليات السويس وبورسعيد ....» [٥٣٨].

٥٣٧ المرجع السابق، وثيقة رقم ٢٤١٠، «إعادة النظر في إتفاق القسطنطينية وتحييد قناة السويس ١٩٠٤- ١٩٠٨» السطر الخامس.

٥٣٨ المرجع السابق، ملف ٣١٧ «الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر»، حافظة ١١٨٢١، وثيقة ١٥٢، السطر ١٦٠- ١٦٣، أنظر: كذلك المرجع السابق، وثيقة ٤٩٩ من ١٩٠٤- ١٩٠٥ «عبور سرب السفن عبر قناة السويس»، أنظر: أيضاً المرجع السابق، وثيقة رقم ٥٠٥ لعام ١٩٠٥ «عودة الروس من ميناء آرثر، عودة الأسرى من اليابان، عودة القوات من الشرق الأقصى».

في ذلك الوقت، صعبت الدوائر الإسلامية في مصر، التي كانت ترنو ببصرها نحو «تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب»، من مهمة القنصل العام الروسي في مصر. فقد رحبوا كثيراً بانتصار اليابان على اعتبار أنه انتصار لقوى الشرق المستعبد على الغرب، على الرغم من أنه كان واضحاً أن الصراع في هذه الحرب الشرسة كان بين اثنين من الدول الإمبريالية وهما روسيا واليابان. لم تكن المشاعر المعادية للروس في مصر تحمل طابعا جماهيريا، لكنها جلبت الكثير من المتاعب مستقبلا للمبعوث أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما ازدادت الدعاية المؤيدة لتركيا في البلاد.

زاد من صعوبة عمل أ.أ. سميرنوف في القاهرة سطوع نجم حركة التحرير المصرية، التي كانت تتبنى توجها عدائياً ضد البريطانيين، وإنما لكل ما هو أجنبي بوجه عام. فقد كتب القنصل العام في نهاية أول عام من إقامته بالقاهرة، في تقريره بتاريخ الثامن عشر من شهر أبريل لعام ١٩٠٦ والذي أرسله إلى وزارة الخارجية: «إن حالة الغليان التي تشهدها مصر الآن بين سكانها من المسلمين، على النقيض من عام ١٨٨١، تحمل طابع الوحدة الإسلامية، وبعيدة عن أي طموحات عربية قومية. ويُعد من أبرز قادة تلك الحركة مصطفي كامل، وهو شخص موهوب، ولكنه كاتب متعصب، يثير الشعب ضد الأوروبيين بوجه عام والإنجليز بشكل خاص، ولكنه لا يملك تأثيراً قوياً على الطبقة الإسلامية المتعلمة، والمرفهة، والتي إستوعبت مزايا الحضارة مع الوعى بأن الرخاء والغنى لن تحققهما الدولة إلا بإشراف الأوروبيين. بيد أن أفكار مصطفي كامل والأفكار التي على شاكلتها، حظيت بانتشارا ملحوظا عند عموم الشعب البسيط وخاصة بين رجال الدين، والشيوخ، والشباب العربي الدارس في مصر»[٥٣٩].

ونظرا لعدم معرفة أ.أ. سميرنوف غير الكافية بالحياة المصرية، فقد وصل لاستنتاج ظاهرى بغياب الروح القومية العربية في التظاهرات الشعبية في الفترة ما بين عامي ١٩٠٥-١٩٠٦، ولم يذكر موجات النضال الاجتماعي الذي من وجهة نظرة تحدث على أساس الوحدة الإسلامية، والتبعية الوثيقة بالقسطنطينية. ومع ذلك فقد سلم بأن حالة الفوران هذه ربما تتجمد بالتدريج أو ستؤدي إلى قلاقل غير مؤثرة هنا أو هناك، ولكن من الممكن

٥٣٩ المرجع السابق، ملف رقم ١٥١، حافظة رقم ٤٨٢، وثيقة رقم ٨٥٦، السطر رقم ٤٠.

أيضا تحت تأثير ظروف خارجة عن السيطرة تماماً ، فإنها ستثير فجأه موجة عاتية من الغضب الشعبي والتعصب» [٥٤٠] .

بالفعل وقعت حادثة دنشواي بعد أقل من شهرين ، إذ قامت مجموعة من الضباط الإنجليز في الثالث عشر من يونيو عام ١٩٠٦ أثناء اصطياد الحمام بالقرب من قرية دنشواي بمحافظة المنوفية بإصابة زوجة إمام مسجد تلك القرية ، فقام الفلاحون على الفور برشق الإنجليز بالحجارة والعصي ، مما أدى إلى وفاة أحد الضباط الإنجليز ، وتم توجيه التهمة للفلاحين بقتل الضابط الإنجليزي . وقضت المحكمة آنذاك بالحكم على أربعة من فلاحي دنشواي بالإعدام شنقاً ، والحكم على إثني عشرة آخرين بعقوبة الحبس لفترات متباينة ، والحكم على ثمانية أفراد بالعقاب البدنى . أثارت الأحكام الصادرة على فلاحى دنشواى حملة احتجاج عاصفة بين كافة أطياف المجتمع ، والتي أدت إلى مظاهرات أخرى مناهضة للبريطانيين ، وهو ما سبق أن تنبأ به المبعوث الليبرالي . وقد عجلت هذه المظاهرات بشكل ملحوظ على إنخراطه ودخوله حلبة الأحداث المصرية .

يظهر تحليل البرقيات والتقارير اللاحقة التي كان يرسلها أ.أ. سميرنوف أنه بدأ شهراً بعد شهر وعاما بعد عام ، يتعمق أكثر في جوهر الأحداث التي شهدتها بلاد الأهرامات. وقام في غضون عام أوعامين بإرسال مذكرات وتقارير تحليلية رائعة تصف الحالة الاجتماعية والدينية والسياسية لمصر ، وكذلك الوضع الدولي المرتبط بمصر . ومن العجيب أن أشد أعداء المبعوث أ.أ سميرنوف أثناء قيامه بتنفيذ مهامه الوظيفية كانوا من الروس . وحقيقة الأمر أنه نظراً لظروف مصر السياسية والجغرافية الملائمة ، فقد وجد ممثلو حركات المعارضة الروسية التربة الخصبة لممارسة نشاطهم الثوري [٥٤١] . وتزامن نشاط تلك الحركات الثورية مع وصول سميرنوف إلى مصر . وكان يناير عام ١٩٠٧ أصعب فترة مرت عليه ، عندما اصطدم في القاهرة ، والإسكندرية بصفة خاصة بمقاومة عنيفة من جانب مجتمع دولى قوى ومنظم لاعتقال وطرد ثلاثة من الثوار الروس . جاء في البرقية المشفرة التي أرسلها سميرنوف إلى وزير الخارجية السوفيتي أ.ب إيزفولسكي من السابع إلى العشرين من شهر يناير عام ١٩٠٧ أنه : «منذ ما يقرب من أسبوع قامت الشرطة بالإسكندرية بإلقاء القبض على اثنين من اليهود و مواطن جورجي بتهمة الشروع في تفجير باخرة روسية (تابعة لهيئة الملاحة والتجارة الروسية – المؤلف) وقد أكد التحقيق الذي أجراه القنصل التابع لنا على

٥٤٠ المرجع السابق ، السطر ٣٧- ٤٠ .

٥٤١ أنظر : جينادى جورياتشكين « الإسكندرية بين مصر وروسيا « ، موسكو ، ٢٠٠٦ ، صـ ١٦٩ : صـ ١٧٢ .

صحة جنسيتهم الروسية، وأكد شبهة الاتهام الذي يحوم حولهم، إلا أنه عند ترحيلهم إلى روسيا قام اليهود ، والماسونيون، والفوضويون الإيطاليون بإثارة اضطرابات، وأعمال شغب في الشوارع بين الأوروبيين بالإسكندرية. واليوم حاول حشد هائل يتألف من ألف شخص اقتحام سفارتنا ونزع العلم المرفوع فوق الأبواب ، إلا أنه صدرت الأوامر للشرطة بحماية القنصلية، ووعد كرومر بأن يرسل قوات إنجليزية في حالة الضرورة القصوى» [٥٤٢].

قام المبعوث المهان، الذي كان يؤدي واجبه الوظيفي والوطني، في ظل قنصلية منزوعة الأبواب وعلم داسته أقدام الجماهير أكثر من مرة بتقديم احتجاجات دبلوماسية ملحة للسلطات البريطانية. وفي الثامن من يناير سأله اللورد كرومر ألا يرضيه زيارة وزير الخارجية المصري مع تقديم اعتذار رسمي. بيد أن المبعوث الروسي اعتبر ذلك غير كافياً، وسأل أ.ب إيزفولسكي: «ألا ينبغي الإصرار على أن يقوم محافظ الإسكندرية بزيارة إعتذارية بالزى الرسمى، وبمرافقة الحرس لكي يرفع العلم الوطني المنزوع مجددا من قبل السلطات المحلية في إطار رسمي» [٥٤٣].

باركت الخارجية الروسية إصرار المبعوث. وعلى الرغم من المسيرات الحاشدة التي كانت تشهدها القاهرة والإسكندرية، إلا أنه في الثالث عشر من يناير تم ترحيل كل من بوتسوييف، وبونتمان، وبلوتنيك من ميناء بورسعيد سراً، و في الخامس عشر من نفس الشهر «قامت السلطات المحلية برفع شعار القنصلية الروسية بالإسكندرية في مكانه السابق» [٥٤٤].

أبلغ القنصل أ.م بيتروف سانت بطرسبورج في أغسطس عام ١٩١٣ أن الوضع أصبح صعبا جدا على الرغم من الإجراءات المضاده التي اتخذتها السلطات القنصلية لدرجة دس جواسيس بين المهاجرين، والحد من نشاط ممثلي التيارات الثورية الروسية، التي باتت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصري الأجنبى ذي التوجه اليساري» [٥٤٥].

ومع ذلك فقد انتصر سميرنوف في المعركة الكبرى التالية ضدهم، إذ انه اكتسب الخبرة اللازمة عند « تسجيل» اللجنة النقابية لاتحاد بحارة البحر الأسود التجاريين ، والتي ظهرت في الإسكندرية بعد إنكسارها في روسيا في نهاية عام ١٩١٢. قد أوضح المبعوث

٥٤٢ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف «القنصلية» ، حافظة ٤٧٠ ، وثيقة رقم ٣ ، ١٩٠٧ ، السطر ٤٤ -٤٧ .
٥٤٣ المرجع السابق ، السطور ٤٨- ٤٩ .
٥٤٤ المرجع السابق ، السطور ٥٠- ٥٤ .
٥٤٥ المرجع السابق ، ملف ١٤٩ ، «المائدة التركية الجديدة» حافظة رقم ٥٠٢٦ ، وثيقة رقم ٥٣٤١، السطر ١٣٨ .

ذلك الحدث في خطابه ، المرسل إلى صديقه المقرب وشريكه في الرأي أ.إ مولتشانوف رئيس المكتب الرئيس لهيئة الملاحة والتجارة الروسية ، ورئيس جمعية المسرحيين الروس في السابع والعشرين من أبريل ١٩١٣ : «لقد كنتُ بالإسكندرية لليوم الثالث على التوالي لمسألة متعلقة بكم . فقد وصلتني أنباء من وزارة الخارجية ، أنه من المتوقع أن تقوم أطقم السفن بإضراب في الأول من مايو ، وقد صدرت الأوامر باتخاذ الإجراءات اللازمة . وفي النهاية تقرر إعتقال أداموفيتش القائد الرئيس وهو شخص معروف نسبياً لكم . وذهبت إلى الإسكندرية على الفور ، وفي غضون ثلاث ساعات وبعد مباحثات مع الشرطة قمنا بإعتقال أداموفيتش الذي كان يعيش تحت اسم مستعار وجواز سفر ألماني ، وعثرنا معه على أوراق مهمة ومراسلات بالإضافة إلى ختم الهيئة . وسأقوم بإرسال كافة المتعلقات لكم لقد تم الأمر بنجاح منقطع النظير واستطعنا على نحو ما إرساله إلى روسيا ؟ ولكن القنصل يأسف أن المكان المخصص للمعتقلين على سفننا ليس جيداً» [٥٤٦] .

بدأ أ.أ سميرنوف عمله بمصر في ظل النهج السياسي الثابت الذي كانت تنتهجه الإمبراطورية الروسية لعشرات السنوات ، مع تلك الولاية الكبرى التابعة للدولة العثمانية فمنذ مساندة روسيا للحركة الإنفصالية التي قام بها علي بك الكبير في ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر ، وصدور مرسوم من القيصرة كاترين الثانية لإنشاء أول قنصلية روسية في الإسكندرية في عام ١٧٨٤ ، كانت روسيا تعمل دائما على دعم ومساندة مصر في تحقيق طموحها السياسي ، الرامي إلى الإنفصال عن الباب العالي . وفي هذا الإطار لم يكن لدى الإمبراطورية الروسية أية مخططات إستعمارية لمصر فقد كانت روسيا في حاجة لمصر المحايدة وقناة السويس المحايدة أيضاً ، لتسهيل نقل شحناتها ومواطنيها و قواتها إلى أراضي الشرق الأقصى .

إتسمت العلاقات الثنائية بين البلدين بالمساواة والاحترام المتبادل والصداقة ، على الرغم من مشاركة القوات المصرية في الحروب التي اندلعت بين روسيا وتركيا حيث كانت القوات المصرية تحارب لصالح الباب العالي . فقد جاء في التعليمات الصادرة من وزارة الخارجية لمستشار الدولة ليكس ، أن يعمل قدر طاقته على إضعاف نفوذ إنجلترا التي أصبح لها اليد العليا في مصر . وفي هذا الشأن صدرت له التعليمات بعدم التدخل المباشر في شئون إدارة مصر، ولكن يسعى لنيل نفوذ شخصي لدى الخديوي ووزرائه ويوضح لهم أن حكومة الإمبراطورية الروسية ستظل تتعامل مع مصالح مصر بتعاطف

٥٤٦ الأرشيف التاريخي الحكومي المركزي ، ملف ٦٦٨ ، حافظة رقم ١ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، ١٩١٠-١٩١٥ السطر رقم ١١ ، ويحفظ في ملف تلك القضية صور من تلك المراسلات وصورة لمكتب أ.أ.سميرنوف بمقر القنصلية العام بالقاهرة في شارع عماد الدين . ولمعرفة مزيد من التفاصيل عن صحيفة «ريجستراتسيا»، إعتقال ومحاولة هروب م . أداموفيتش من سجن الحضرة بالإسكندرية ، أنظر : مقال فلاديمير بيلياكوف «المهاجرون السياسيون الروس في مصر» في مجلة «الأرشيف الشرقي» في العدد المذكور .

شديد ، على الرغم من الأعمال العدائية من جانبهم في الحرب الماضية بين تركيا وروسيا» جاء ذلك في التقرير المفعم بالولاء لعام ١٨٧٨ [٥٤٧] .

قبل عام من وصول أ.أ سميرنوف إلى القاهرة ، كان نيكولاي الثاني قد أكد على تطبيق نفس هذا النهج في التعامل مع دولة الأهرامات . فقد جاء في البرقية السرية التي أرسلتها وزارة الخارجية الروسية في الرابع والعشرين من شهر أبريل لعام ١٩٠٤ إلى المبعوث الروسي في برلين أ.أ أوستين ساكين (وتتضمن جزءاً متعلقا بمصر) : « ليس لدى روسيا أية مصالح مباشرة في مصر» ، بيد أن نيكولاي الثاني أستخدم قلماً أزرق لتعديل عبارة وزير خارجيته : «فيما عدا الأهمية الدولية لقناة السويس ، تسارسكوي سيلو في ٢٦ أبريل ١٩٠٤» [٥٤٨] .

لم يبق أمام أ.أ.سميرنوف سوى أن ينفذ تعليمات وزارة الخارجية ، وأوامر القيصر بمنتهى الدقة. وقد ساهم ياور القصر الإمبراطوري بنصيب ملموس في إثراء جوهر وشكل العلاقات المصرية الروسية . وبالفعل فإن عدم تدخل روسيا في الشئون الداخلية لمصر منذ أمد بعيد ، قد لفت أنظار الحكام المصريين الذين كانوا يعتمدون دائماً على مساعدة وتعاون القناصل الروس ، في ظل الضغوط التي يتعرضون لها من إنجلترا وفرنسا ، ثم من إنجلترا فقط فيما بعد .

إدراكاً لأهمية وجود علاقات جيدة مع قيادة أكبر الولايات العثمانية ، وإستغلال وضعها المزدوج قام المبعوث الروسي بتأسيس علاقات وثيقة جداً مع الخديوي والأمراء . وسعياً لتوطيد تلك العلاقات اتخذ المبعوث الروسي إجراءات فعاله لتنظيم وتنفيذ رحلات لأفراد عائلة محمد علي إلى روسيا . ويرجع إليه الفضل تحديدا في تنظيم رحلات الأمير محمد علي شقيق الخديوي عباس حلمي الثاني إلى سيبيريا و الشرق الأقصى في طريقة إلى اليابان من خلال خط السكة الحديد المنشأ حديثا في عام ١٩٠٩ ، والذي يمر عبر سائر سيبيريا ، ثم رحلته إلى القوقاز وآسيا الوسطى في عام ١٩١٠ . و قد كتب أ.أ.سميرنوف عن ذلك في رسالة إلى وزير الخارجية أ.ب إيزفولسكي : «كان في زيارتي مؤخراً سمو الأمير محمد علي ، شقيق الخديوي ، حيث كان يقوم برحلة في نهاية فصل الصيف إلى اليابان

٥٤٧ أنظر : «مصر في عيون الروس منتصف القرن ١٩- بداية ٢٠ السياسة ، الإقتصاد والثقافة» . جينادى جورياتشكين ، موسكو ١٩٩٢ ، صـ ٤٨ .

٥٤٨ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥١ ، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة ٦٤ لعام ١٩٠٤ ، السطر ٢٨ .

ثم اجتاز روسيا كلها في طريقه إلى سيبيريا . وقد أعرب لي الأمير عن بالغ امتنانه لهذا الاستقبال الجيد الذي وجده في روسيا ، وعلى كافة الخدمات التي قدمت له طوال رحلته . وقد طلب مني الأمير أن أبلغ سلامه لمعاليكم».

وفي الختام قال الأمير محمد علي بعد ، أن تذكر ذلك الاستقبال الذي حظي به وهو شقيقه الخديوى الحالى عندما كانا صغاراً في ضيافة الإمبراطور ألكسندر الثالث أنه كان يشعر في رحلته هذه أنه ضيف الإمبراطور ويرغب بشدة في أن يتم إبلاغ جلالة الإمبراطور بالغ امتنانه العميق ومشاعره المفعمة بالوفاء والإخلاص[٥٤٩] . ويعتزم محمد علي في الصيف المقبل زيارة آسيا الوسطى والقوقاز . وهو الأمر الذي طلب أن أبلغه لمعاليكم على أمل ألا تعترض حكومة الإمبراطورية على تلك الجولة ويتقدم مقدما ببالغ الشكر على تلك التسهيلات والخدمات التي دائما ما تقدمونها له»[٥٥٠] .

كان المبعوث الروسي يعتبر أن إحدى أولوياته الأساسية في دولة وادي النيل ، هو العمل الفعال على عرقلة سعى إنجلترا تحويل مصر إلى مستعمرة تابعة لها . وفي هذا الصدد كان المبعوث الدبلوماسي يرى أنه لا يجب السماح بإلغاء المحاكم المختلطة التي كانت تعمل في البلاد في تلك الفترة معتبراً أنه تحت ستار تنظيم التشريع والمحاكم تكمن حسابات سياسية عميقة في إحلال المحاكم المصرية بشكل صوري ، ثم تحل محلها المحاكم الإنجليزية . وظل المبعوث الروسي يعترض باستمرار على قيام سلطات الاحتلال الإنجليزية إلغاء نظام الامتيازات معتبراً ذلك سابقاً لأوانه ، حيث أن إلغاؤها سيمكن الإنجليز من تنفيذ خططهم الرامية نحو إستحواذهم الكامل على وادي النيل[٥٥١] .

قدم أ.أ.سميرنوف النصح لحكومته بأن ترفض الاقتراح الإنجليزي الخاص بالحصول على المضايق التركية مقابل الموافقة لبريطانيا على ضم مصر . وبفضل هذا الموقف الصلب والمستمر للمبعوث الدبلوماسي الروسي بالقاهرة ، ظلت مصر تحتفظ شكليا بكيانها ، كدولة ذات حكم مستقل سياسياً في الإمبراطورية العثمانية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى .

٥٤٩ جرت تلك الزيارة في سانت بطرسبورج في عام ١٨٨٨ ، وذهب عباس حلمي الثاني إلى روسيا في عام ١٩٠٠ – أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥١ ، حافظة رقم ٤٨٢، وثيقة ٨٤٣ ، السطر ١٨٨ .

٥٥٠ المرجع السابق ، ملف ٣١٧ ، حافظة ١/٨٢٠ ، وثيقة ١٥٤ ، السطر ٢٣ .

٥٥١ أنظر : جينادى جورياتشكين «بعض من سمات تطور النظام القضائي ومصادر تشريع العمال في مصر ١٨٤١- ١٩١٨» \\ الشرق في زمن جديد ، الإقتصاد ، نظام الدولة - موسكو ١٩٩١ صـ ٢٧٢- ٢٩٠

جلبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨) لسميرنوف تحديات جديدة . فقد توافد إلى مصر من الجبهات مئات الجرحى والأسرى السابقين ، من المواطنين الروس . وكان لابد من مساعدتهم جميعا ، لهذا تم إنشاء لجنة روسية لتقديم المساعدات ، لضحايا الحرب بالإسكندرية برئاسة القنصل العام أ.م . بيتروف ، وقد بدأت عملها في الثالث عشر من أكتوبر ١٩١٤ وكانت تقوم بصفه دورية بإرسال صور من محاضر اجتماعاتها إلى أ.أ سميرنوف ، الذي كان يشرف على عملها بصورة مباشرة [٥٥٢] وجاء في الرساله التي بعث بها القنصل بيتروف إلى أ.أ.سميرنوف في الثاني والعشرين من ديسمبر من عام ١٩١٨ حجم المهام الإضافية : «إستناداً إلى تقاريري السابقة ، أتشرف بإحاطة الوكاله الدبلوماسية؛ نقلاً عن أنباء تناقلتها السلطات العسكرية البريطانية وقنصليتنا في بورسعيد عن وصول دفعة جديدة من الأسرى الروس المحررين إلى تلك المدينة وتعدادهم ٥٨٦ شخص من بينهم ٥٤٥ روسياً ، و٣٨ أرمينياً ، وثلاثة أسرى مسلمين مدنيين من مدينة أرداهان (رجل وامرأتان) وعند فحص القوائم التي حصلت عليها تبين لي أنه من بين هؤلاء الأسرى يوجد أسرى تم أسرهم في جبهتنا الغربية وعدداً من الأفراد تم اعتقالهم عند هروب القوى الثورية من جاليتسيا [٥٥٣] * في يوليو ١٩١٧» [٥٥٤] .

بيد أنهم لم يجلبوا وحدهم العناء للممثل الدبلوماسي في بلد الأهرامات . فعقب الهجوم الذي شنته القوات التركية على فلسطين بقياده معلمين ألمان ، هرب مئات بل آلاف من اليهود الروس إلى مصر كما يتضح من خطاب أ.أ.سميرنوف المرسل في الثاني من فبراير ١٩١٥ إلى مولتشانوف : « منذ عشرة أيام تقريبا وقعت معارك جديدة مع الأتراك في قناة السويس ، ووقع في صفوفهم عدد كبير ما بين قتيل وأسير ، وكانت الخسائر في الجانب الإنجليزي لا تُذكر ، غير أنه أصيب عدد كبير من الجنود الهنود . ومن المتوقع أن نشاهد هجمات قوية جديدة طالما أن الأتراك قد إنسحبوا وتولى الألمان الأمر برمته . وقام الإنجليز بتعزيز مواقعهم في منطقة القناة . وكانت هناك حالة من القلق قد سرت بين المسلمين المصريين الذين يتعاطفون سرا مع أبناء دينهم . وبالطبع ففي حاله نجاح الأتراك في إحراز أي نصر سيكون ذلك إيذانا بإنفجار التعصب الديني . ويتولى حراستى ألبيون [٥٥٥] * ، فيوجد عند البوابة حارس ، وفي الليل يتواجد حارسان ويعيش معي بالمنزل اثنا عشر جندياً جنديا يتم تبديلهم يوميا ..... ولاشك أن وجود حوالى أربعة آلاف لاجيء

٥٥٢ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة ٣١٣٢٠ ، وثيقة رقم ٧١ السطر العاشر .

٥٥٣ * غاليسيا : منطقة تاريخية مقسمة بين بولندا وأوكرانيا ، وكانت مملكة غاليسيا الأكبر مساحة بين مقاطعات الإمبراطورية المجرية - النمساوية وأقصى أراضيها ناحية الشمال بين عامي ١٧٧٢ حتي ١٩١٨ ، و عاصمتها مدينة لفيف .

٥٥٤ المرجع السابق ، السطر ٨ .

٥٥٥ * البيون : المسمى القديم للجزر البريطانية – المترجم .

يهودي جائع ومشرد تطلب عملاً كثيراً وجهداً كبيراً» [٥٥٦] .

يضم الأرشيف التاريخي العسكري للإمبراطورية الروسية قوائم عديدة لهؤلاء التعساء الذين جاءوا إلى وادي النيل ، وحصل بعضهم على عمل بفضل الجاليه اليهودية الكبيره والمؤثرة . وقد ذكر قطاع من المهاجرين حتى عناوين إقامتهم في مصر ووظائفهم ونجد كثيراً في استمارات التخصص أطباء ، وحلاقين ، كانوا يعيشون في القاهرة في أحياء الجمالية و بولاق و شبرا ، وشارع فؤاد الأول ، وقصر النيل ..إلخ ، وعدد قليل في هليوبوليس وحلوان . [٥٥٧] وقد حاول بعض المهاجرين اليهود مغادرة الحدود المصرية ، متجهين إلى أستراليا وأمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا ، ولكن بقيت مجموعة منهم ربطت مصيرها بمصر . ولهذا فقد كانوا يحرصون على التواجد دائماً ، في بؤرة اهتمام سلطات القنصلية الروسية التي سعت بقدر طاقتها وطبقاً لواجبات عملها مساعدة اللاجئين اليهود وكان المبعوث الروسي يقبض بصرامة على زمام كل هذه القضايا.

وفي هذا الصدد ، كانت الوثيقة التي أرسلها أ.أ. سميرنوف إلى الدبلوماسي الروسي ج.ج ماليك رئيس لجنة تقديم المساعدات للاجئين الروس ، تكشف ذلك الأمر . وقد جاء فيها «إن طريقة إنفاقكم للأموال الخاصة بلجنة تقديم المساعدات للاجئين الروس التي ترأسونها كانت موضوع محادثاتنا لأكثر من مرة فالمبلغ الذي أنفقتموه في غضون شهرين تقريباً والذي يُقدر بحوالي ٢٩٠ جنيهً مصري على السيارات والولائم التي تصاحبكم أثناء تنقلاتكم إلى المعسكرات ، وصرفكم مخصصات مالية اختيارية من أموال اللجنة متجاوزين بذلك صلاحياتكم كرئيس للجنة ، باتت هي الأخرى موضوعاً للأحاديث ، ولفتت أنظار الإنجليز ...» [٥٥٨] .

بات أليكسي ألكسندروفيتش أكثر كآبة عما كتبه في رسائله قبل فترة الحرب ، حيث كتب إلى أ.إ مولتشانوف في السابع والعشرين من شهر أبريل لعام ١٩١٣ « أشعر بحالة من العزلة والوحدة ، فلا أجد أحداً أتكلم معه . وأتذكر ببالغ السعادة تلك الأمسيات الرائعه التي أمضيتها هنا معكم . وأننا لم نترك شيئاً الإ وتحدثنا عنه ، وإنني ببساطة قد أصبحت أكثر شباباً بفضل إقامتكم . ومن جراء الإثارة من الصعب أن تتفقو مع الناس في الآراء ، ولكن التفاهم المشترك يسهل العلاقات، وقد أثرت مغادرتكم في

٥٥٦ الأرشيف التاريخي المركزي للدولة ، ملف رقم ٦٧٨ ، حافظة رقم ١ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، السطور ١٩- ٢٠ ، تحفظ مراسلات ل.أ . مولتشانوف في صندوق باسمه وتضم ١٤ رسالة مرسله له من قبل أ.أ . سميرنوف ١٩١٠- ١٩١٥ .

٥٥٧ أنظر الأرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٣١٨٢٠ ، وثيقة ٢٠٥ ، السطور ١- ٨ .

٥٥٨ المرجع السابق ، وثيقة رقم ٥٣ ، السطر ٢ .

نفسى تأثيرا بالغا . خالص الشكر يا عزيزي أناتولي يفجرافوفيتش على تلك اللحظات الجميلة ومعاملتكم الطيبة . أتمنى لكم وللسيدة ماري جافريلوفنا كل الأمنيات الطيبة ....وأرجو إستمرار تواصلنا الروحى الصادق»[٥٥٩] . كان المبعوث يترقب وصول الزوجين مولتشانوف بحلول نهاية عام ١٩١٢ .

كان سميرنوف صديقاً مقرباً للزوجين مولتشانوف ، فبالإضافة إلى المراسلات الدائمة بينهما ، والتواصل بحكم طبيعة العمل (حيث كان يتواجد في مصر عدد من موظفي هيئة الملاحة والتجارة الروسية ، التي كان يرأسها مولتشانوف) فقد كان يتوجه في كل عطلة لزيارة الزوجين في كاربوفكا ، بالقرب من سانت بطرسبورج ، وكان سيمرنوف بدوره يستضيفهما بكل ترحاب كل شهور فصل الشتاء . وقد دعاهم المبعوث الروسي هذه المرة لقضاء فصل الشتاء في مصر عامي ١٩١٣-١٩١٤ ، ولكن ذلك الأمر لم يحدث . وقد كتب «سميرنوف» : « ... لقد خدعتموني ! ظللتُ في انتظاركم طوال فصل الشتاء ، وإنتظرت بلا جدوى» وإستطرد: «لقد كان شتاءً مزعجاً ، حيث كان هناك عدد كبير من السياح ، والرحالة رفيعي الشأن . وأحيطكم علماً بأنني ، سأتوجه في مطلع أكتوبر القادم إن شاء الله إلى سانت بطرسبورج ، وسأعرج على كاربوفكا . فليحفظكم الله! خالص تحياتي ، المخلص أ.أ. سميرنوف» . كتب سميرنوف تلك الرسالة في أبريل من عام ١٩١٤[٥٦٠] ، ولم يقدر لهذه الزيارة أن تتم حيث جاءت الحرب لتقطع زيارات الأصدقاء والضيوف رفيعي الشأن ، الذين كانوا يغيرون نمط الحياة الروتينية ، ويرفهون عن النفس بالأحاديث الصادقة والصريحة ، التي نفتقدها أثناء الإقامة الطويلة خارج البلاد .

اختفي الهدوء والتفاؤل من حياة أ.أ. سميرنوف ، وازداد قلقه على مستقبله العملي خاصة بعد تلك الآنباء التي كانت ترد إليه من وزارة الخارجية الروسية ، بشأن القرارات السياسية التي كان يتخذها وزيرها س.د.سازونوف . وقد كتب عن كل ذلك صراحة في رسالته إلى أ.إ مولتشانوف ، والتي جاء فيها : «كما توقعتُ تماماً ، لم أحصل في عيد الفصح أو أي أحد ممن يعملون تحت إمرتى على أي شيء ، في حين تم تكريم أصدقاء سازونوف تكريما مذهلاً فقد حصل كل من سفيربابيف و نيراتوف على وسام «أنا»، على الرغم من أنهما أصغر منى سناً بكثير... ومن المحزن أن ترى أنه مهما سعيت وإجتهدت فإن الأخرين يسبقونك ولاتملك أن تفعل شيئا . أصبحتُ أشعر بالخزي من بقائي في العمل

٥٥٩ الأرشيف التاريخي المركزي للدولة ، ملف رقم ٦٧٨ ، حافظة رقم ١، وثيقة رقم ١٣٤٥، السطر ١٢ .

٥٦٠ المرجع السابق ، السطور ١٦-١٧ الخطاب من ٣٠ أبريل/نيسان ١٩١٤ .

الدبلوماسي لتعامل الدبلوماسية المخزي تجاه الجبل الأسود ، والتصرف كتابع للنمسا، والتبريرات المخزية أمام الدوما . لقد سئمت للغايه من كل ذلك. أريد شيئاً ما جديدا وعبقريا وقوياً ... أكتب لكم بمنتهى الصراحة، وأعلم جيداً أن حزنى هذا سيقابل بتعاطف من جانبكم» [٥٦١] . وجاءت كلمات سازونوف لتصف لنا موقف سميرنوف : «إن بعض دوائر بتروجراد القريبه جدا من القصر ، وصحافة معسكر القوميين في العاصمه تتعامل منذ فترة بعداء ضد وزير الخارجية، وقاموا بشن حملة شرسة ضد سياسة روسيا الخارجية، تجسدت في مظاهرات احتجاج تجوب الشوارع، واجتماعات تشهد خطابات وطنية تطالب بالحرب للدفاع عن المصالح السلافية، وسلسة مقالات تتهم الدبلوماسية الروسية بتُهم تكاد تصل إلى خيانه الدولة . وقد تأثرنا بشكل خاص من مطالبة الملك نيكولاي ، ملك الجبل الأسود بضم مدينة سكوتاري وضواحيها ....» [٥٦٢] .

كتب أ.أ. سميرنوف وصيته عام ١٩١٦ ، ونظراً لأنه لم يكن لديه أسرة أو ذرية، فقد وهب كل ثروته لشقيقاته وأخيه وأولادهم. كانت شقيقات سميرنوف وهن : أولجا (سميرنوفا)، وماريا (نوفاكوفا) ، وناتاليا (بيكوفا) يقمن أثناء كتابه الوصية في العشرين من نوفمبر ١٩١٦ في مدينة بتروجراد ، وشقيقتان أخريان هما : إليزابيث (كريلوفا) ، وألكسندرا (شيل) كانتا تعيشان في خاركوف ، وأنّا (تشيركاسوفا) كانت تعيش في يكاترينبورج. أما محل إقامة الشقيق الوحيد للمبعوث الروسي – وفقاً للوصية – ويُدعى فلاديمير ألكسندروفيتش سميرنوف ،الذي كان يشغل منصباً رفيعاً في وزارة الداخلية الروسية كان بيتروجراد أيضا [٥٦٣] .

تفهم أ.أ. سميرنوف الثورة البرجوازية التي اندلعت في فبراير في روسيا ، بل وقدرها جيداً. وبعد المظاهرة الضخمة أمام مقر القنصلية العامة، قرر سميرنوف استقبال ممثليهم برئاسة المبعوث الروسي لصندوق الدين المصري «بازور» ، الذي سلمه برقية خطها هذا الوفد إلى السلطات الجديدة في روسيا . وكتب المبعوث الروسي رسالة إلى ميليكوف بتاريخ ١٢ / ٢٥ مارس ١٩١٧ : «لقد أعربت للوفد عن يقيني التام من الخروج بسلام من الأزمة الراهنة، لأن جميع الأسماء التي تترأس الحكومة هي بمثابة الضمان لذلك . أضيف هنا أن السلطة توجد في يدٍ أمينة، و الرغبة في انتصار روسيا على عدوها قد تزايدت بصورة كبيرة في

٥٦١ المرجع السابق ، السطر رقم ١١ .
٥٦٢ أنظر : سازانوف . س . د «مذكرات» باريس ، ١٩٢٧ ، صـ ٨٧ وما بعدها ...
٥٦٣ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٣١٨٢٠ ، وثيقة رقم ٢٧٩ ، «عن وصية سميرنوف ١٩١٦» ، السطور ٢٣٦-٢٣٧ .

روسيا الحرة . ثم خرجتُ بعد ذلك إلى الشرفة ، لأجد حشداً هائلاً من البشر يجتمع أمام المنزل و يحملون يافطات حمراء مكتوباً عليها : « فلتحيا روسيا الحرة !" . وقد قاموا بتحيتي بصوت جهوري» .

قد أرسلتُ لكم برقية عاجلة باسم الجالية الروسية ، وآمل أن تصلكم في الوقت المناسب « وجاء في الرساله لاحقا المناشدة التي وجهها المتظاهرون للمبعوث الروسي لدى مصر: «تفرق الحشد الذي كان يهدف للترحيب بالمستقبل المجيد الذي ينتظر روسيا. وشارك في هذا الإجتماع ممثلون عن الشعب الروسي وقوميات أخرى يرتبط مصيرهم به وكلفنا الجمع أن نتوجه إليكم باعتباركم الممثل الرفيع الشأن لروسيا في مصر بطلب متواضع وهو عدم الممانعة في إرسال برقية لرئيس مجلس الدوما (باللغة الفرنسية) تتضمن ما يلي : « نحن المواطنون الروس من جميع القوميات التي تعيش في مصر نعرب عن مشاعر التعاطف العميق ، والثقة المطلقة في المسئولين الذين يوجهون مصير روسيا اليوم نحو مستقبل جديد للسلام ، والتآخي بين الشعوب ، التي تقاتل تحت رايتها ، ونرسل أمانينا الحارة لجيشنا المجيد ولقياداته التي لا تُقهر ..» [٥٦٤] .

لم يعترف سميرنوف بثورة أكتوبر ، ولا بروسيا السوفيتية ، واصفاً اللجنة الشعبية السوفيتية بأنهم : « عصابة من المغتصبين الذين استولوا على الوطن بعد سقوط السلطة الشرعية للبلاد» [٥٦٥] . أدت ثورة أكتوبر إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروسيا، ثم إلى تقليص و تجميد جزئى للعلاقات التقليدية بين البلدين ، ولكن ظهرت جوانب جديدة لحوار ثقافي حضاري بين البلدين .

كانت تلك المرحلة من أصعب الأوقات التي مرت على عمل القنصل العام بمصر ، فقد بات بالفعل «الأب الحقيقي» للجالية الروسية في مصر ، والتي تزايدت بعد هزيمة الجيش الأبيض في حرب القرم . فقد شهدت الفترة من يناير إلى مارس ١٩٢٠ ، نقل أكثر من أربعة آلاف روسي على متن خمسة سفن بحرية ، من نوفوروسيسك إلى ميناء الإسكندرية . وأقام المهاجرون الروس بمصر والذي بلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف مواطن بصفة أساسية في كل من القاهرة والإسكندرية . وقد عملوا في عدة مهن ، منها قيادة سيارات الأجرة (التاكسي) ، وقيادة شاحنات النقل ، وإصلاح السيارات ، وقائدي الترام ، وموظفون

٥٦٤ أنظر المرجع السابق ، ملف رقم ١٥١ ، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة رقم ٨٧٦ (١٩١٥-١٩١٧) ، السطور ٣٢٦ – ٣٢٧ .

٥٦٥ أنظر المرجع السابق ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة ٣١٨٢٠ ، وثيقة رقم ٢٠٩ السطر الأول .

داخل المحاكم المختلطة والمؤسسات التجارية وشركة قناة السويس، ومعلمي لغات، ورياضيات، وموسيقى، ومربيات للأطفال في منازل الأثرياء المسيحيين، وموسيقيين، ورساميين (مثل الفنان الروسي إيفان بيليبين)، وفنانين، ومصففي شعر، وصحفيين، كما عملوا في مصانع التبغ والعديد من المصانع الأخرى.

وساهم علماء المصريات من الروس بجهد بارز في الثقافة المصرية ومنهم: ف.س جولينشيف، وفيكينتيف، وبيانكوف، والزوجين لوكيانوف وغيرهم كثيرون. ولا تزال الأعمال الفنية للرسامين الروس تزين جدران المتاحف والمعارض الفنية المصرية حتى الآن. وبالنسبة للمهاجرين من الروس البيض فقد أفادوا وطنهم الثاني مصر بشكل كبير إذ شاركوا في أعمال البعثات الأثرية، والحفريات والبعثات الأخرى [٥٦٦].

كان الأطباء الروس قد افتتحوا عيادة روسية عام ١٩٢٠، وكان يترأسها الطبيب إ فاجنر، أخصائي الأمراض الباطنية، وكان يشغل من قبل منصب مدير العيادة الطبية بجامعة موسكو. وكان يتردد على تلك العيادة حوالي ١٠٠٠ مريض سنوياً. وكان الأطباء يقومون بعمل مؤتمرات علمية، وإصدار أبحاث علمية، كما كانوا يقومون بالعمل على تدريب كوادر من الأطباء المصريين [٥٦٧].

قدم أ.أ. سميرنوف العديد من المساعدات إلى طاقم تلك العيادة (كما أنه ساهم ماديا في إنشاء كنيسة داخل مبنى العيادة). كما قدم مساعدات لفرقة طلاب الدون العسكرية، التي كانت تتمركز بالاسماعيلية في منطقة البحيرات المُرة، وكذلك ساعد الكثير من الجمعيات والتعاونيات الروسية التي ظهرت على ضفاف نهر النيل، وبصفه فرديه أولئك الروس الذين كانوا يعانون كثيرا بسبب البطالة. فقد كان الأمر على النحو التالى إذ كان يتعين على المهاجرين الذين استطاعوا العثور على عمل أن يجلبوا لأرباب العمل توصيتين لأن السلطات الإنجليزية المستعمرة كانت تعتبر كل روسي بلشفي.

لم يكن أ.أ.سميرنوف الملقب بـ«أبو» المهاجرين الروس في مصر، صاحب الفضل وحده في تقديم المساعدات اللازمة والعاجلة لهم، بل يعود الفضل كذلك إلى الدبلوماسي الروسي أليكسي ميخائيلوفيتش بيتروف القنصل الروسي بالإسكندرية، الذي التحق

٥٦٦ أنظر: جينادى جورياتشكين، ت. ج. جريتسينكو، إ.و. فومين «الهجرة الروسية في مصر وتونس ١٩٢٠- ١٩٣٩»، موسكو، ٢٠٠٠ صـ٣١- ٤٠.

٥٦٧ أنظر: جينادى جورياتشكين «العيادة الروسية في القاهرة»، مجلة آسيا وأفريقيا اليوم، العدد رقم ١١ لعام ١٩٩٨.

بهذا المنصب في عام ١٩١٠ ، وتُوفي في عام ١٩٤٦ ، ودُفن في مقبرة الإسكندرية بالشاطبي وهناك دبلوماسيون آخرون قدموا يد العون والمساعدة للمهاجرين الروس بمصر ومنهم سيرجي بافلوفيتش رازوموفسكي (١٨٧٥-١٩٤٧) ، الذي عمل ملحقاً دبلوماسياً بالقاهرة، وبعد عام ١٩٢٣ تولى مهمة أمين الأرشيف الدبلوماسي ، ونيكولاي إيفانوفيتش فينوجرادوف (١٨٨-١٩٣٥) ، الذي عمل نائباً للقنصل بالقاهرة ، وأندريه ياكوفلفيتش نيسين القائم بأعمال القنصل الروسي في بورسعيد وغيرهم .

منذ السادس من أكتوبر ١٩٢٣ حدث تدهور حاد في الحالة المادية والنفسية للروس في مصر ، حين قام مجلس الوزراء (الآنجلو مصري) برفض شرعية البعثة الدبلوماسية الروسية في مصر . توجه المبعوث الروسي في محاولة لتغيير ذلك الوضع إلى عدة جهات منها إدارة الاحتلال الإنجليزي ، ومجلس الوزراء الوفدي ، وسفراء الدول الكبرى ، والسلطة المركزية للمهاجرين في باريس ، والمنظمات الدولية ، والحكومة الأمريكية .

جاء في الخطاب المرسل إلى السلطات الأمريكية «إن تدفق اللاجئين الروس إلى مصر النازحين من مختلف أنحاء الأراضي الروسية بعد سقوط كولتشاك[٥٦٨]* ودينيكين[٥٦٩]* وفرانجيل تطلب توسيع دائرة نشاط الوكاله الدبلوماسية والقنصليات . واستدعي ضرورة تأسيس لجان قضائية جديدة . وعلى الرغم من العلاقة الطيبة والتعاون من جانب المفوضيات الدبلوماسية للدول الأخرى ومن جانب الحكومة المصرية ، إلا أن الجانب المالى قد وقف عائقاً أمام عمل المؤسسات الروسية السالفة الذكر . ومنذ عام ١٩١٧ أوقفت روسيا كافة أنواع الدعم المالي لمفوضياتنا بالخارج ، غير أن تلك المؤسسات قد إستطاعت مباشرة عملها بصعوبة بالغة ، بفضل الدعم المادي الذي خفض إلى النصف مقارنة بالاعتمادات السابقة التي كانت تدفع في السنوات الأولى من قبل الحكومة الآنجلو – مصرية ، والتي إستمرت حتى الآن على الرغم من أنها أصبحت أقل كثيراً مما كانت عليه .

---

٥٦٨ * ألكسندر كولتشاك قائد بحري ومستكشف ، له اكتشافات عديدة في القطب الشمالي ، وخبير بارز في زراعة الألغام ، وعضو بالجمعية الجغرافية الروسية حصل علي الميدالية الذهبية السيف للشجاعة وذلك تكريماً لدوره البارز في معركة بورت أرثر ، وحصل علي الميدالية الذهبية قسطنطين العظيم من الجمعية الجغرافية – المترجم .

٥٦٩ * أنطون إيفانوفيتش دينيكين . واحد من أبرز جنرالات الحركة البيضاء في الحرب الأهلية الروسية – المترجم .

كان من غير الممكن تقريباً الإنفاق على البعثة الدبلوماسية ، وثلاث قنصليات معاً بمبلغ ٤٠٠ جنيهاً مصرياً نحصل عليها في الوقت الراهن ، لأن هذا المبلغ كان يحتم علينا أن ندفع للموظفين أقل من نصف رواتبهم . فقد كانت الاعتمادات المالية المخصصة للمفوضيات الروسية في الأوقات العادية تصل إلى حوالي ١٠٠٠ جنيه شهرياً ... وعند عجز الموارد المالية كانت الوكالة الدبلوماسية الروسية تنجح في الحصول على جزء من الدعم الدعم المالى من السفارة الروسية في باريس ، غير أن إرسال هذه المبالغ قد توقف الآن تماما ...

هناك معلومات تفيد بأن الحكومة الأمريكية قد منحت الحكومة الانتقالية الروسية آنذاك مبلغ يُقدر بنحو ١٦٧ مليون دولاراً والآن هى مشغولة ومهمومة بالحصول على باقي هذا المبلغ من المسئولين الذين خيبوا ثقة الحكومة الأمريكية ، ووقعوا تحت نفوذ وتأثير الأغلبية .

كان كل أملي باعتباري مبعوث المفوضية الروسية في مصر ،المؤسسة الوحيدة بالعالم تقريباً التي إحتفظت بالتبعية الكاملة لروسيا الشرعية ،أن تجد أمريكا أنه من المناسب أن تقدم لي المساعدة كدين روسي حكومي حتى لومن تلك المبالغ الواردة إليها[٥٧٠].

كان كل هذا بلا جدوى . لم يفلح أ.أ. سميرنوف في الحصول على أية مساعدة من أية جهة ، ولا من أي شخص . وتحولت الوكالة الدبلوماسية إلى بعثة روسية ، ثم إلى جمعية للمواطن الروسي ، وأخيراً ، إلى مجرد نادي روسي . ثم بدأ عامل الزمن يسير لصالح روسيا السوفيتية التي بدأت دول الغرب الكبرى في الاعتراف بها في النصف الأول من العشرينيات، لذلك بدأ مجلس الوزراء الآنجلو – مصري تغيير موقفه تجاه المهاجرين الروس، وتم إلغاء نظام الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها .

ومن المفارقات أن الجالية الروسية بين سبع عشرة جالية كبرى أخرى ، تقيم في مصر و تتمتع بحقوق الحصانه التي طالبت بإلغائها الحركة الوطنية المتصاعد نجمها آنذاك برئاسة الوفد ، هي أول من تضرر هنا . على الرغم من أن قادتها كان لهم موقفاً معادياً لبريطانيا ، ومسانداً لمطالب مصر في الاستقلال .

٥٧٠ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٣١٨٢٠ ، وثيقة رقم ٢٠٩ السطور ١- ٩ .

لم تكن لتكتمل قصتنا هنا ، دون الإشارة إلى النشاط الأدبي للمبعوث الروسي أ.أ.سميرنوف. فإلى جانب عمله الدبلوماسي، كان له العديد من الأعمال الأدبية الهامة. وتعود أولى أعماله الكتابية إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر.....[٥٧١] ، يضم الكتاب مقالات سميرنوف عن الأربعة أيام التي قضاها في نهاية يوليو ١٨٨٦ في جبل آثوس. وقد وصف في هذه المقالات بدقة ،حياة سكان هذا الجبل الذين تعرف عليهم عندما كان سكرتير السفارة الروسية في القسطنطينية. وقد شاهد المبعوث الروسي أكثر من عشرين معبداً في شبه جزيرة آثوس. و ظل الجبل المقدس بمنأي عن القلاقل السياسية البيزنطية. فقد عاش سكان هذه الجزيرة حياة روحانية هادئة. و لم تؤثر أحداث الغرب اللاتيني على الجزيرة ، وقد استدعت حملات الصليبيين اللاتينية وهجمات القراصنة إنشاء مبنى ذو أسوار ضخمة وأبراج للحماية. وعندما وقع جبل آثوس تحت سيطرة تركيا ، ظل ثابتا على الأرثوذوكسية ، ومع سقوط الدوله البيزنطية انتهت فترة الأديرة اليونانية ، كما أن الإسلام لم يهدم المقدسات الأرثوذكسية، و حصل هذا الجبل المقدس على عدة امتيازات عديدة من الأتراك ، فقد احتفظ بحكمه الذاتي المستقل ، وواصل حياة الزهد والتنسك .

بالنسبة لنا نحن الروس يجب، أن يكون جبل آثوس غالياً مثل كسرة من حطام، بقيت سليمة بالصدفة من عالمنا الروحي ، والذي كانت أشعته أول ضوء أنار ظلمة روسيا الوثنية . وأما غار كييف- بتشورسكي ، وغار الثالوث – سيرجي ، فهذه فروع لذلك العالم زرعت في تربه مختلفة وترعرعت فيها . وأشار المبعوث الروسي الشاب إلى أنه : «لا يوجد على جبل آثوس أي من أنثى البقر ولا الحمير ولا الدجاج الرومي ولا الدجاج ، حيث تم طرد كل أنثى الحيوانات خارج حدود الجبل المقدس ، لدرجة أنه يتم جلب بيض الفراخ من الجزر المجاورة» [٥٧٢].

لم يغب عن اهتمام سميرنوف حقيقة أنه هناك في أرض آثوس المقدسة ، التي من حيث كثير من الدلائل ، تذكر بروسيا (فالعباد من الروس يرتدون القمصان القطنية و يلبسون صنادل ، و يحملون حقائب على الظهر والكتف وكؤوس في اليدين، كبارالسن ، وشباب صغار ، وأطفال...) ، وقد اغتنى الرهبان في ذلك الجبل ، و شيدوا القصور المرمرية في الجزر القريبة [٥٧٣] .

٥٧١ أنظر : ل . أ . سميرنوف «أسبوعين في الجبل المقدس» ، موسكو ١٨٨٧ ، يوجد بالنسخة المحفوظة في مكتبة جوركي بجامعة موسكو ، توقيع للمؤلف جاء فيه : «إلى الزميل والرفيق العزيز أليكسي نيكولايفيتش خاروزين – من المؤلف ، بيوكدار ، ١٨٨٨» .

٥٧٢ أنظر المرجع السابق ، صـ ٣٩- ٤٠ ، صـ ٤٦ .

٥٧٣ أنظر المرجع السابق ، صـ ٥٢ ، صـ ٦٧ .

كان أليكسي ألكسندروفيتش، يرغب في توسيع معرفته بالبلدان المجاورة وتعميق معلوماته التي درسها في كلية الإستشراق بجامعة سانت بطرسبورج. وقد قام بالفعل الإستفادة من عمله الدبلوماسي الذي قدم له منصباً دبلوماسياً رفيعاً في مصر التي تقع في ملتقى ثلاث قارات وواصل التعرف على العالم الأوروبي والأفريقي والآسيوي المحيط به. ولم يضيع بالطبع فرصة الذهاب إلى السودان الرائع المجاورالذي كان يعتبر جزء مؤقت، ولكنه في نفس الوقت كان مربحاً جداً لبريطانيا، وكذلك لطبقة رجال الأعمال البورجوازية المتصاعدة في مصر. وكان يُطلق على السودان آنذاك مصطلح «السودان الآنجلو – مصري». وقد أخبر أ.إ. مولتشانوف في الخامس من أبريل ١٩١٢ : «الجو لدينا حار للغاية ولكن إنقضى الشتاء والحمد لله ! لقد أمضيتُ أياما مملة وبغيضة وذهبتُ إلى السودان في شهر يناير، وقمتُ بجولة من الخرطوم إلى الجنوب ثم عبرت النيل الأزرق إلى سنارة ثم النيل الأبيض عند جبل أبوجمعة، ثم عدتُ عبر البحر الأحمر إلى ميناء السودان. وإستمتعتُ برؤية العديد من المشاهد الطبيعية الخلابة. إنها حقاً طبيعة غريبة علينا فهي شبه وحشية. كما أن سكانها عرايا، وهناك تتواجد أعداد كثيرة من التماسيح وأفراس النهر، بالإضافة إلى طيور مائية غريبة.. إنها دولة ممتعة كما أنها تحمل في طياتها مستقبلاً واعداً ...» [٥٧٤].

أثار إبداع أ.أ. سميرنوف اهتمام المعاصرين، حتى أن أحد معاصريه الذين وصلوا إلى القاهرة في عام ١٩٠٨، وصف سميرنوف: « بأنه شخص ليس غريباً عن عالم الأدب»، وأشاد بروايته التاريخية «سكليرينا» (سانت بطرسبورج ١٩٠١) والتي وصفها بأنها منظومة شعرية لعادات الشرق، التي أشاد بها العامة والنقاد آنذاك» [٥٧٥].

هناك كتاب مجمع لسميرنوف بعنوان «من كآبة الماضي»، والذي يتضمن قصصاً وروايات مثل « ناتاشا»، « فيدما»، « شخص في الوشاح الأبيض»، «الليل»، « الأزرق السماوي في العمق ». نجد في تلك الأعمال أن سميرنوف الأديب حاول التغلغل في العالم الداخلي لأبطاله، ونجده قد نجح في ذلك بالفعل، وخاصة في الاسكتشات النفسية التي صاغها سميرنوف لشخصيات رواياته ودوافع تصرفاتهم وسلوكهم التي ظهرت في تلك الروايات والقصص [٥٧٦].

٥٧٤ الأرشيف التاريخي المركزي للدولة، ملف رقم ٦٧٨، وثيقة رقم ١٣٤٥، السطر ٧.

٥٧٥ أنظر : س. فونفيزين «سبعة شهور في مصر وفلسطين» سانت بطرسبورج، ١٩١٠ - صـ١٣١.

٥٧٦ أنظر : أ.أ. سميرنوف «من كآبة الماضي» موسكو، ١٩٠٩.

لا ننس هنا الإشارة إلى تجارب أ.أ. سميرنوف الشعرية ، التي ظهرت في الوقت الذي إزدهر فيه فن الشعر الغنائي في روسيا ، في مطلع القرن العشرين . ويمكن أن نجد قصائد سميرنوف الشعرية في بيبلوجرافيا الشعر الروسي في تلك الفترة . وكان من بين شعراء تلك المرحلة : ك. بالمونت ، وأ.بيلي ، وأ.بلوك ، وس.كريتشيتوف ، وف.سولوجوب ، وف. خوداسيفيتش . وكان المحور الرئيس لتلك الأعمال هو موضوع الساعة آنذاك ، والذي كان يتمحور حول تلك الموضوعات « المدينة والمصنع والحضارة والحنين للهواء المنعش، والحنين للطبيعة الحرة . و قد تناولت قصيدة أ.بيلي «في الشارع» هذا الموضوع ، والتي جاء فيها :

عبر الآنابيب المتربة والصفراء ،
أركض وأفتح مظلتي ،
وألسنة الدخان المتصاعده من فوهات المصنع ،
تبصق في الأفق الناري

وقد خصص أ.بيلي للبيئة واحدة من الخمس قصائد المنشورة وهى «المصنع» ، وكان أ.أ سميرنوف قد نشر قصائد صغيرة له في سلسلة قصائد شعرية والتي يجيء من ضمنها :

أنظر ! مغطى بالظلال المزخرفة ،
كأنه مسخ خرافي شرير،
تغمرة النيران من رأسه حتى أخمص قدميه
و في ضباب الليل يقف المصنع شامخاً،
اسمعوا ! في صمت منتصف الليل
فإنك تسمع كيف تخرج تنهيدة طويلة ؟ ،
إما قشعريرة شريرة بفعل ثقل النحاس ،
وإما ظهور مولوخ إله الفينيقين الشرير (المصحح) تحت وطأة التفكير ،
وفي المخالب الحديدية للوحش النارى ،
يستعبد الشعب أياما وليالي ،
و بعد أن نسى الأحلام ، لم يعد يؤمن بالخلاص
بل يعرف فقط صيحة ملاحظ الرقيق «إلى الأمام» ! ،

حلم غامض من أبخرة المستنقعات ،
كسى المصنع بخيمة غريبة الشكل ،
وهو (المصنع) إذ يلقى بظلاله الشريرة في شكل دائرة ،
يحترق و يحترق بنار لاتنطفيء ،،،،

إلى جانب قصيدة «المصنع» ، يضم الكتاب قصائد شعرية لسيمرنوف ومنها : «بطل الشمس» ، «ميليسندا» ، «أمير يهوذا» ، «مالك السلطة» ،و «المدينة الصغيرة » [٥٧٧] .

وقد نشرت أعمال سميرنوف بوصفه أديباً مرات كثيرة في روسيا والخارج وخاصة في مصر . ومازالت توجد بعض من تلك المطبوعات حتى الآن في المكتبات الروسية . وتقول روايات المعاصرين إنه كان من الممكن أن تجد أعمال سميرنوف تُباع لدى بائعي الكتب في ميدان الأوبرا بالقاهرة في الخمسينيات والستينيات .

ولعل الفقرة التي وردت في خطاب سميرنوف المرسل إلى أ.إ مولتشانوف ، والذي طلب منه مساعدته في نشر أعماله الأدبية كملحق مجلة «نيفا» تكشف مدى قوة وحجم إبداع السفير الروسي : «كنتُ أعتزم منذ وقت بعيد أن أتوجه إليكم بمطلب أيها العزيز أناتولي يفجرافوفيتش . هل لديك معرفة بأي من الأشخاص ، أو أنك تستطيع أن تؤثر على هيئة تحرير مجلة «النيفا» ، حيث إنني أرغب في أن توافق تلك المجلة على تجميع أعمالي ومؤلفاتي الأدبية في ملحق ، وتجعله هدية مع عدد المجلة . بالطبع هذه المجموعة لن تصدر في شكل أنيق ، ولكن سيكون حجم هذ النسخ ضخماً للغاية ، وتوزيعه على نطاق واسع من أجل الشهرة .فضلا عن ذلك فإنهم يدفعون نقوداً ليست سيئة والآن عندما يقومون بمنح الكاتب الروسي « مامين سيبيرياك « جائزة « بونين» ، فربما أطمع أن أكون مرشحا لنيل تلك الجائزة ، وهذا بلا شك يزيد من شهرتي ، ويكون دافعاً لي للتوجه فيمابعد إلى دار نشر أكبر وأشهر مثل «أ.أ ليفنسون» ....»

أصبح لدي من أربعة إلى خمسة مجلدات ، تضم أعمالاً متنوعة ما بين قصائد شعرية ونثرية وجولات ورحلات وملاحظات . فهل أدركت فكرتي إذن ؟ أعتقد أنه لابد من المضي في هذا الأمر بشكل سريع إذ لابد أن يقتنعوا أولاً [٥٧٨] .

٥٧٧ المناخ الرفقة «جريف» موسكو ، ١٩٠٥ ، صـ١٠ ، ٢١ ، صـ ١١٥ – ١٢٠ .
٥٧٨ أرشيف الدولة التاريخي المركزي ، ملف رقم ٦٧٨ ، حافظة رقم ١ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، السطر رقم ٢٠ .

اعترف المصريون «بثنائية» سميرنوف الدبلوماسية والإبداعية . وفقاً لرواية كاتب مقال تأبينه في الصحيفة الأسبوعية «L'illustration egyptienne» ، في عددها الصادر بتاريخ ٢٠-٢-١٩٢٤ : « إن حضور عدد كبير من كبار المسئولين المصريين ، جنازة أ.أ. سميرنوف يدل على الاحترام العميق الذي يكنونه لسميرنوف الدبلوماسي والأديب الراحل» .

كان أ.أ. سميرنوف قد مرض مرضاً شديداً قبل وفاته بعامين تقريباً اذ إعتل بمرض «حمى النيل» ، للفترة الطويلة التي قضاها في المناخ الحار والرطب . وقد إستطاع الدبلوماسي بطريقة أو بأخرى أن يواجه هذا المرض ولكن لسوء حظه حدثت مشكلة أخرى فقد صدمته سيارة عندما كان يجوب شوارع القاهرة المكتظة بالناس ، مما أدى إلى أصابته بكسر من الدرجه الثانية في عظام القدم . أجرى الأطباء الروس له عملية ناجحة، غير أن إلتئام الجرح كان يسير بصعوبة بسبب مرضه «بحمى النيل» . وسريعاً ما تفاقم الوضع الصحي للدبلوماسي فقد تلوث الدم ثم حدثت الوفاة .

توفي أليكسي ألكسندروفيتش في الثامن عشر من فبراير ١٩٢٤ ، في شقته بالمنزل رقم ١٤ الكائن في شارع الشيخ أبو سبأ في منطقة عابدين بوسط القاهرة . جري تأبين أ.أ. سميرنوف في التاسع عشر من فبراير داخل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للقديس قسطنطين ، والقديسة يلينا في بولاق . وقد ووري جثمانه الثرى في العشرين من فبراير عام ١٩٢٤ في المقبرة الأرثوذكسية التابعة لكنيسة القديس جيورجى في القاهرة القديمة . وأقامت الجوقة القداس في الكنيسة على روحه واللوتورجيه في كنيسة القديس جيورجي بإشراف الوصي فاسيلييف العقيد السابق .

تم وضع تمثال متواضع لسميرنوف فوق مقبرته ، دون الإشارة إلى صاحب التمثال بناءً على رغبته . وجاء في الوصية المكتوبة باللغة الفرنسية في العشرين من نوفمبر ١٩١٦ كتب ياور القصر الإمبراطوري «إذا ما توفيتُ بمصر فرجاء لا تحنطوا جثتي ، وفي حالة ما إذا رغبتم في نقل جثماني إلى روسيا بعد الدفن المؤقت ، فلا داعى أن تحنطوه . وليس لدى مانع على الاطلاق في بقاء جثماني في مصر إلى الأبد . وأطلب أن يقوم جورج بك لطف الله [٥٧٩] بدفع كافة الأموال الخاصة بعملية الدفن ، وعمل التمثال وشراء

٥٧٩ جورج بيه لطف الله – مبعوث القنصل الروسي بالفيوم وكان الصديق المقرب للمرحوم . وكان شقيقه ميشل عضواً بالمجلس التشريعي لمصر . وهما من أبناء اللبناني الأرثوذكسي حبيب لطف الله . ويوجد رفات أسرتهم على بُعد أمتار قليلة من مقبرة أ.أ. سميرنوف .

المقبرة. وأرجو أن تكون الجنازة متواضعة للغاية. أرجو كذلك، عدم وضع أكاليل من الزهور أو قول أي خطاب عند مقبرتى وأن تكون المقبرة بسيطة جداً، وأن يكتب على الشاهد الذي يوجد عليه الصليب الحجري : أليكسي سميرنوف ولد في الرابع عشر من شهر سبتمبر ١٨٥٧، وتاريخ الوفاة « إلهى لتكن مشيئتك»، وقد كَتبتُ هذه الوصية بنفسي في العشرين من نوفمبر ١٩١٦، الموصي بالتركة سفير الإمبراطورية الروسية فوق العادة والوزير المفوض، ومستشار الدولة الفعلي وياور جلالة الإمبراطور. بالإضافه إلى التوقيع[٥٨٠].

هكذا كانت النهاية المتواضعة، والدرامية لحياة هذا الشخص غير العادى، الذي قدم الكثير للروس في مصر، بالإضافة إلى إسهاماته في توطيد العلاقات الروسية المصرية.

كانت سلطات السفارة والقنصلية الروسية ومركز المفوضية الروسية في الخارج في القاهرة والإسكندرية، قد قامت بترميم مقبرة سميرنوف وعشرات المقابر للروس الذين نزحوا في الموجة الأولى من الهجرة، في القاهرة القديمة والشاطبي بالإسكندرية. وتم افتتاح اللوحة الرخامية الجديدة على مقبرة سميرنوف وترميم الكنيسة الروسية الصغيرة في التاسع والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٢، في حضور السفير الروسي في مصر، الراحل ن.ف كارتوزوف والقنصل العام بالإسكندرية «ن.م خولوف»، والعاملين بالقنصلية والسفارة الروسية وأعضاء المركز الثقافي الروسي بالقاهرة والإسكندرية وممثلي وسائل الإعلام وعدد كبير من الجالية الروسية والضيوف. وقد صاحب الافتتاح وضع أكاليل من الزهور وقداس أقامه النائب البطريركي للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مصر ديمتري (نيتسيفيتايف).

٥٨٠ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة رقم ٣١٨٢٠، وثيقة رقم ٢٧٩ «عن وصية سميرنوف ١٩١٦».